

يوسف كامل

بدر الدين أبو غازي

يوسف كامل

تأليف
بدر الدين أبو غازي



يوسف كامل

بدر الدين أبو غازي

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٦٣ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور بدر الدين

أبو غازي.

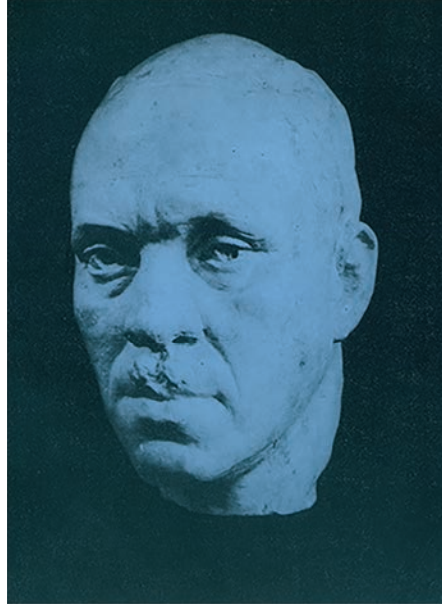
المحتويات

٩

يوسف كامل

٢١

من أعمال يوسف كامل



يوسف كامل للممثل عبد القادر رزق.

يوسف كامل

بقلم: بدر الدين أبو غازي

بدأ لقاء مصر بالوجه الأوروبي للتعبير الفني منذ مهّدت الحملة الفرنسية للفنانين الأجانب الطريق إلى مصر، فتوالى توافدهم عليها، وبهرتهم أحياء القاهرة القديمة والضواحي المحيطة بها، وسجّلت لوحاتهم المساجد والبيوت القاهرية، ومواكب الأعياد، والأسواق، والنساء المحجّبات.

وكان بدء تعليم الفنون الجميلة في مطلع القرن العشرين على يد فريق من هؤلاء الفنانين الذين استهوتهم مصر وطال مقامهم فيها ... وإلى هؤلاء يعود الفضل في تعليم أصول الفن للفنانين المصريين الأول، وفي مقدمتهم المصوّر يوسف كامل.

نشأ يوسف كامل في بيئة قاهرية بين أسرة من المهندسين لم يخلُ أفرادها من قدرات فنية ... وكان في صباه تستهويه مشاهدة أعمامه وأقاربه يرسمون البطاقات الملونة في الأعياد، فيشاركونهم عملهم ويتفوّق عليهم.

والتحق بعد المرحلة الأولى من تعليمه بمدرسة الفنون والصنائع تمهيداً لإعداده الهندسي، ولكنه ما إن علم بإنشاء مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة سنة ١٩٠٨م حتى تقدم للالتحاق بها، وزامل من رُؤاد الجيل من فناني مصر المثّال محمود مختار، والأساتذة محمد حسن وراغب عياد وأحمد صبري. ومعظم هؤلاء ساقتهم المصادفة إلى المدرسة الأولى للفنون بحى درب الجماميز ... عرفوا أخبارها من جارٍ أو صديق ... وكذلك كان شأن يوسف كامل مع مدرسة الفنون؛ إذ أخبره بأمرها أحد جيرانه من مُحبّي الفن والأدب: الأستاذ محمد السلحدار.

كان معلم يوسف كامل الأول هو المصوّر الإيطالي باولو فورشيللا أستاذ التصوير في المدرسة، وقد أحب فورشيللا المناظر المصرية، وتفاعلت في فنّه النزعة الأكاديمية مع ملامح انطباعية، وكثيراً ما صَحَبَ تلاميذه إلى أحياء القاهرة القديمة وضواحيها في المرج والمطرية، وإلى شواطئ النيل في الروضة ومصر القديمة، فأتاح لهم بذلك الاتصال الحميم بطبيعة بلادهم، وحرّره من أساليب التعليم المدرسية في نطاق المراسم ... وكان يوسف كامل بين أفراد جيله أقربهم إلى نفس أستاذه وإلى أسلوبه الفني، فظلّ وفيّاً لأحياء القاهرة القديمة وضواحيها، قريباً من مَنازع الفنانين الانطباعيين وطرائقهم في التعبير.

وتدلّ أعماله المدرسية على المحاور التي دار في مجالها فنّه، فسجّلت لوحاته أبواب القاهرة القديمة، وحوانيت الخيمية، والنحّاسين، والمراكب عند أثر النبي، والأشجار العتيدة عند المقياس، وفي مصر القديمة.

وحين أتمّ دراسته بمدرسة الفنون الجميلة، لم يجد للفن بمصر مجالاً في غير النطاق التعليمي، فأخذ طريقه إلى تدريس الرسم بالمدارس مع أول جماعة من المدرسين أعدوا إعداداً فنياً خالصاً بمدرسة درب الجماميز.

وكانت المدرسة الإعدادية الثانوية من نصيب يوسف كامل ومجاله الذي لقي فيه مجموعة من الأدباء والمفكرين، جمعتهم وظائف التدريس بهذه المدرسة في مطلع حياتهم، كان منهم العقاد، والمازني، وفريد أبو حديد، وأحمد حسن الزيات، ومحمد صادق عذّر، وعبد الواحد خلاف ... وظل بناء المدرسة العتيد بميدان الظاهر، مركز حركة وإشعاع ... في هذا المكان تأسّست لجنة التأليف والترجمة والنشر برؤاها الذين حملوا رسالة المعرفة، كما تكوّنت تجمّعات أسهمت في الحركة الوطنية وفي الحياة الثقافية ... وقد كانت هذه المدرسة نفسها من نتاج الوعي القومي؛ فقد دعا الشيخ عبد العزيز جوايش إلى إنشائها من حصيلة التبرّع بجلود الضحايا في العيد الكبير.

ولعل أثر البيئة على يوسف كامل يتمثّل أكثر ما يكون في حماسه ورغبته في تنمية فنّه، واستكمال تكوينه.

واتّجه يوسف كامل، كما اتّجه بعض أفراد جيله، إلى أحياء القاهرة القديمة؛ حيث كانت ألواح الفنّانين تتلاقى في حي الخيمية وعند باب الفتوح، لقاءً يُدكّرنا بالتقاء لوحات رينوار ومونيه وإدوار مانيه في حديقة أرجانتي وعلى مشارف مونمارتر.

واتّخذ يوسف كامل مرسماً له بحي القلعة، واستهوته المناظر المحيطة بالمنطقة، والأشخاص البسطاء الذين يُمثّلون صورةً من حياة الحارة في القاهرة، فأخذ يُصوّر لأنّه

وُلد مُصَوِّراً، ولأنه يلقي نفسه أمام الألواح والألوان دون أن يكون له في ذلك خطة أو سعي إلى الكسب عن طريق العمل الفني.

وذاث يوم، رجل فرنسي قَدِمَ إلى القاهرة في مطلع القرن ليربطها بخطوط الترام، فاستحوذت المدينة على حبه، وبَهَرَهُ مناخها وسكَّانها، فاخترها مقاماً له حتى تُوفِّي في الثلاثينيات بعد أن أدَّى للفنون في مصر خدمات جليلة ستظل تُنسب إليه.

بول ألفريد فيس هو ذلك الرجل الذي اقترن اسمه بضروب عدة من النشاط الفني في مصر، وإليه يرجع فضل تشجيع الفنانين المصريين، كما أنه أحد الذين حملوا مهمة تخليد ذكرى مختار وجمع تراثه الفني بعد وفاته.

وكان الرجل شغوفاً بصداقة الفنانين، ولكنه لم يَلْقَ في البدء إلا المُصَوِّرِينَ الأجانب الذين عاشوا بمصر، وفي مقدمتهم المُصَوِّرُ بيبي مارتان الذي كان أقرب المُصَوِّرِينَ الأجانب إلى روح البيئة المصرية.

وفي إحدى جولاته بحي القلعة، أتيح له مصادفة رؤية الفنان يوسف كامل يُصوِّر إحدى لوحاته، فتبادل الحديث مع الفنان، وعرف مرسومه، وعاد المهندس فيس ليبغ السيدة هدى شعراوي عن اكتشافه لفنان مصري ناشئ ... وفي اليوم التالي وقفت عربة في إحدى الحواري المتفرعة من حي القلعة، وكان هذا هو اللقاء الأول للفنان بالسيدة الجليلة التي اختارت لوحتين من أعماله؛ إحداهما تُمثِّلُ ريفية، والأخرى لمنظر بالقلعة، وبعد أيام تلقى منها الفنان مظروفاً طَوَّته على كلمة شكر ومبلغ ستين جنيهاً اعتبرته إسهاماً منها في شراء ما يلزمه من الألواح والألوان وأدوات التصوير ليواصل إنتاجه.

وخرج يوسف كامل إلى محلات أدوات التصوير بالقاهرة، واشترى بكل المبلغ ألواناً وقماشاً.

وكان الفنانون قلة نادرة، كما أن مثل هذا المبلغ في أول العشرينيات كان كفيلاً بأن يُزوّد معهداً فنياً لا فناً واحداً بمستلزماته. وأحدث يوسف كامل باقتنائه هذا أزمة حتى إن محمد ناجي — وهو أيضاً من مُصَوِّرِي القلعة — ظل فترة يذكر جولاته بين محلات أدوات الفن في القاهرة بحثاً عن الألوان البيضاء التي اختفت من الأسواق؛ لأن يوسف كامل اشتراها جميعاً.

بهذه البساطة الصادقة والإخلاص الصامت عاش يوسف كامل، وفي هذا المناخ كانت بدايات الفنانين المصريين ... غير أن يوسف كامل كان يتطلع دائماً إلى أوروبا التي عرفها من أحاديث أساتذته ... وكان يستشعر الحاجة إلى استكمال إعداداته الفني؛ فلما لم يجد

في بعوث الدولة مجالاً، اتفق مع زميله المصور راغب عياد — وكان يعمل أيضاً بوظائف التدريس بمدرسة الأقباط — على أن يقوم كلُّ منهما بعمل زميله بالإضافة إلى عمله، ويتقاضى مُرتبته، وأن يتناوبا السفر إلى إيطاليا كلُّ منهما على نفقة الآخر؛ لزيارة متاحفها واستكمال دراسة الفن بها.

البعثة الرسمية إلى روما

كانت الفكرة بما تحمله من دلالات ومعانٍ مثار الإعجاب والتقدير ... ونوّه بها البرلمان في إحدى جلساته سنة ١٩٢٤م؛ حين وقفَ البرلمان ويصا واصف يتحدث عن الفن في مصر، وكفاح يوسف كامل وراغب عياد، ووافق البرلمان على إدراج الاعتمادات لبعوث الفن، فمضت بعثة الفن الرسمية الأولى بالفنانين يوسف كامل وراغب عياد ومحمد حسن إلى روما، وبالفنان أحمد صبري إلى باريس، ليقضوا في قلب الحياة الفنية خمسة أعوام من سنة ١٩٢٥م إلى ١٩٢٩م.

واجتاز يوسف كامل، ببساطته وإخلاصه، فترة تكوينه الثاني، تتلمذ على الأستاذ كرومالدي، وكان مصوراً للمناظر الطبيعية وأستاذاً لصور الأشخاص، كما تتلمذ على الأستاذ أنطونيو كالكانيا دور الذي أشركه منذ عام ١٩٢٨م في تصميم الأعمال الفنية بوزارة الحربية، وتنفيذ مجموعة من اللوحات التي تُزيّنُها. وتأثّر يوسف كامل بأعمال الإيطاليين المعاصرين، مثل مالتيس مُصوّر الحيوانات، كما التقى بامتدادات الحركة الانطباعية في إيطاليا من خلال أعمال سيجانيني وموريلي وبرفياتي.

كانت الموضوعات التي استهوت يوسف كامل في القاهرة هي نفسها التي استحوذت عليه في روما؛ فكم من وقفة له أمام بيوتها القديمة وعند الحواري العتيقة! وكم جذبته بائعات الورود والمتسوّلون والأشخاص البسطاء الذين يُضفون على نسيج الحياة اليومية سحراً خاصاً!

كانت هذه الموضوعات هي التي تأخذ عليه مجامع نفسه فيقضي في مرسومه عاكفاً عليها ساعات طويلاً دون أن يدركه الملل. وعلى العكس من ذلك، كان يقف من موضوعات أخرى موقف الرفض ما دامت لا تلقى استجابةً من نفسه.

ولقد حدّثني ذات يوم أن هذا الصديق لنفسه كاد يُفوّت عليه امتحاناً في أكاديمية روما؛ حين فرض الأستاذ على تلاميذه رَسْم موقع لم يجد فيه يوسف كامل شيئاً يُحرّك مشاعره، فتوقف عن أداء الامتحان، ودعا زميلاً له إلى الانسحاب، ولكن هذا الزميل الألماني اعتذر؛ لأنه كان حريصاً على أن يجتاز العام الدراسي.

واستوقف الأستاذَ امتناعُ تلميذه — الذي يعرف قدرته وموهبته — عن مواصلة الامتحان، وسأله عن سبب امتناعه؛ فلما عرف السبب ترك له حرية اختيار الموضوع الذي يستهويه. وهنا تحرّكت مشاعره، وانطلقت يده، وقَدَّمَ عملاً نال من أجله التفوّق ... وكان شعاره وصية كوربيه: «أن تكون أنت نفسك هو الطريق الوحيد لأن تُحرّك المشاعر».

على هذا النحو، مضت سنوات البعثة في روما بين بيته القريب من الأكاديمية ومرسمه، وأمام روائع المتحف يستجلي أسرارها، وفي المواقع التي تستهويه يُسجّل انطباعاته عنها. وكان حُبُّه للأحياء القديمة يتقاسمه حبُّ آخر للحياة الهادئة في الضواحي التي تحمل سمات الريف، فسكن فترةً بضاحية فراسكاتي القريبة من روما، استهواه فيها جمال الطبيعة وسحر النور، وإيقاع الحياة اليومية بروعة نسيجها الباهر.

غير أنه لم يلبث أن عاد إلى روما ليُقيم قريباً من أكاديمية الفنون؛ حيث يقضي في مراسمها معظم ساعات النهار وجانباً من الليل.

ولقد أصبح أباً، ولكن مسئوليات الأسرة لا تشغله عن دأب متواصل من أجل استكمال تكوينه الفني ... هكذا كان همُّ تلك الطليعة التي أرست دعائم الفنون الحديثة في مصر ... العمل المتواصل، والسعي إلى اكتساب المعرفة، والوصال الحميم مع الروائع الكبرى التي تحفُّل بها متاحف روما وكنائسها، والولاء العميق لأساتذة المراسم.

وكان ذلك شأن يوسف كامل خلال فترة إقامته في روما، كما كان شأن راغب عياد ومحمد حسن ... وعلى هذا النحو، مضى شفيق شاروبيم، الذي انضم إليهم ليدرس الفن دراسة عشق وهواية صرفته عن مجالات أخرى وجذبتَه إلى روما، لينضم إليهم دارساً على نفقته، شأن الهواة.

وكذلك أيضاً كان شأن محمد عبد القدوس الذي عاصرهم في روما دارساً لفنون المسرح.

تلك صفحات مشرقة من تاريخ الحياة الفنية في مصر، تفيض بالحب والعطاء، قدّمها الجيل الأول من الفنانين المحدثين مثلاً ونموذجاً جديراً بأن يُذكر وأن يُحتذى.

العودة إلى مصر

عادت بعثة الفن إلى مصر بعد غياب خمسة أعوام أُقيمت فيها للفنون مؤسسات جديدة، ولاحق بوادِر اهتمامات الدولة بدعم الحركة الفنية.

تحوّلت مدرسة الفنون الجميلة التي تخرجوا فيها إلى مدرسة حكومية، وانتقلت من حي درب الجماميز إلى شارع خلاط بشبرا، وافتُتح القسم العالي فيها عام ١٩٢٩م بعد أن أنهت الدفعة الأولى من طلبتها الدراسة بالمدرسة التحضيرية وفقاً للنظام الجديد الذي وُضع لها، وقوامه مدرسة تحضيرية يليها قسم عالٍ.

وأنشئت مدرسة الفنون التطبيقية بديلاً عن مدرسة الفنون والزخارف المصرية. وشكّلت اللجنة الاستشارية للفنون الجميلة «لبحث المشروعات والوسائل الخاصة بتعليم الفنون وإنشاء المتاحف، واقتناء الطرق الفنية وإقامة المعارض ونظام البعثات إلى الخارج، وبحث وسائل تشجيع رجال الفن من أبناء البلاد، وتربية ملكات الفن وتهذيب الذوق في الجمهور».

وفي عام ١٩٢٨م أنشئت الإدارة العامة للفنون الجميلة في وزارة المعارف بعد أن كانت إدارة التعليم الفني والصناعي تضطلع بشئون الفنون في مصر، واختير لهذه الإدارة ناقد ومؤرخ فني كبير هو لويس هوتكير.

وبدأت نواة متحف الفن الحديث باقتناء أعمال بعض الفنانين المصريين والأجانب، وتخصيص قاعة لهذه الأعمال بمبنى جمعية محبي الفنون الجميلة. ولم يكن بمصر عندما سافرت بعثة الفن المصرية الأولى سوى جمعية مُحبيّ الفنون الجميلة، تُقيم صالونها السنوي بعد المعارض التي أقامتها الجمعية المصرية للفنون الجميلة.

غير أن الفنانين المصريين قد أقاموا الآن تجمّعهم الخاص باسم جماعة «الخيال» للدعوة إلى إحياء الفن المصري ونشره في داخل البلاد وخارجها عن طريق الدعاية والتعليم والإذاعة وإقامة المعارض بمصر والخارج.

وقد شدّهم هذا الهدف الذي حمل المثالُ مختار الدعوة إليه في هذه الجماعة، فانضمّوا إليه على البعد، وشاركوا في المعارض التي نظّمها، وتحقّق بها الميلاد الحقيقي للفن المصري المعاصر.

إن المناخ الثقافي العام يُبشّر بوعود كثيرة ... وها هو محمد حسن يعود ليتولّى وكالة مدرسة الفنون التطبيقية، بينما يُعيّن راغب عياد مدرساً بالمدرسة نفسها ... وعُيّن يوسف كامل مساعد مدرس بقسم التصوير في مدرسة الفنون الجميلة العليا الجديدة التي تولّى نظارتها عند إنشائها المصوّر الإيطالي كاميليو إينوشنتي، بينما أُسندت رئاسة قسم التصوير إلى المصوّر الفرنسي روجيه بريفال.

وقد ظل يوسف كامل يقوم بدور المُعلِّم، وهو الدور الذي ألهته له شخصيته السَّمَّحة المعطاءة، فلم يتخلَّ عن هذا الدور أستاذًا ورئيسًا لقسم التصوير، ثم عميدًا للكلية. وامتدَّت هذه الحقبة ربع قرن من حياته، لم يتخلَّها إلا ثلاث سنوات عُيِّن فيها مديرًا لمتحف الفن الحديث، ومع ذلك فقد ظل تلاميذه يحيطون به خلال تلك الفترة، وظل هو لهم دائم العطاء.

وكان بيته في المطرية ملتقاهم؛ يجدون فيه الحفاوة والنصح والود العميق.

الانطباعية وفن يوسف كامل

يقترن اسم يوسف كامل في مصر بالانطباعية ... ولئن كانت «الانطباعية» تعبيرًا صنعته المصادفة حين اشتقَّه الناقد الفرنسي لوي ليروي من لوحة من عمل كلود مونييه أسماها «انطباع شروق الشمس»، إلا أن هذه العبارة أصبحت عنوانًا لاتجاهٍ وخصائص معينة في العمل الفني؛ فهي «عملة» سكَّتها المصادفة، ولكنها ما لبثت أن أصبحت شائعة في مجال التداول.

ولقد وجد يوسف كامل في النزعة الانطباعية تجاوبًا مع نفسه وطبيعته، ولكنه ظل مع الانطباعية في صفائها حين بدأت هيامًا بالنور والطبيعة، وقبل أن تتفرَّع وتدخل في نطاق النظريات.

ولقد كان لارتباط يوسف كامل بالحركة الانطباعية بواده في ظل مُعلِّمه الأول باولو فورشيللا، وكان ميله إلى التحرُّر في المراسم والأساليب الكلاسيكية وحبُّه للطبيعة في رحابها وانطلاقها من الأسباب التي جذبتَه إلى فن الانطباعيين.

وثمَّة حقيقة أخرى هي أن رؤية الانطباعيين لها بالشرق ارتباط وثيق؛ فقد وجدوا فيه أرضًا جديدة تُشعُّ بالنضارة والنور، فسعى بعضهم إليها بالرحلة، وتمثَّلها آخرون بالفكر.

وإذا كان الانطباعيون قد وجدوا في الشرق منابع أغنت تعبيرهم الفني، فإنهم أيضًا أعطوا الشرق الحديث ما أبدعوه، وأثَّروا فيه بمفهومهم للون وإدراكهم لقيمة النور، فكانوا أقرب إلى وجدان الفنان الشرقي حين أخذ يمارس الفن وفق الأساليب الغربية.

ولعل هذه الوشائج هي التي وجهت الحركة الفنية الحديثة في البلاد العربية حين بدأت معتمدةً على تعاليم الغرب الأكاديمية، بعد أن انقطع وصل الإبداع الفني في الشرق فترةً من الزمان؛ إذ كانت أكثر الاتجاهات الأوروبية التي لقيت عند الفنان العربي استجابةً

لاتجاه الانطباعيين ومنازعهم في التصوير ... وعن طريق الحركة الانطباعية بدأ التحرر من التعاليم الأكاديمية.

ففي مصر، استكمل محمد ناجي تكوينه في جيفرني بلدة كلود مونيه رائد الانطباعية، وقضى فترة في ظله يعمل تحت تأثيره.

وكانت بدايات المصور محمود سعيد بدايات انطباعية نلمحها في لوحاته التي صوّرها لبعض المشاهد الخارجية في حي القبة وفي الإسكندرية.

وعندما بدأ العقاد يُقدّم مذاهب الفن الحديث، كانت كتاباته الأولى عن «فن الإحساسيين» كما أسماهم في كتاباته الأولى عن الفنون الجميلة ... وقد شاع بعد ذلك إطلاق «التأثيرية» أو التأثرية «اسمًا على هذه الحركة، إلى أن أقرّ مجمع اللغة العربية مصطلح «الانطباعية» مقابلًا للإمبرشنزم».

وتكاد البدايات التي شهدتها مصر تتكرّر على صعيد الوطن العربي، فنرى المدّ الانطباعي في سورية يُبشّر به ميشيل كرشة، ونلمحه في لبنان مائلًا في أعمال قيصر الجميل الذي تأثر برينوار، كما يُمثّله في الفن العراقي أعمال الفنانين الأول، أمثال فائق حسن، وعطا صبري، وحافظ الدروبي، وأكرم شكري.

وحين نلقي نظرةً على المغرب العربي، نرى الانطباعية في تونس ممثلةً في لوحات يحيى التركي، كما نلمسها في اهتمام الفنان الجزائري بتأثير الضوء على المشاهد وبتألُّق الألوان. وقد كانت الجزائر ملتقىً لكثير من فناني الغرب الذين أقاموا بها وأثروا في التعبير الفني عند الفنانين الجزائريين ... وكذلك كان وجودهم في مراكش مؤثرًا في بدايات الفن المغربي الحديث.

من أجل ذلك كلّه، كان اتباع يوسف كامل لمنازع الانطباعيين متفقًا مع طبيعة نفسه، ومع الواقع الجغرافي، والواقع التاريخي للحركة الفنية المعاصرة في بلادنا، غير أنه ظل وفيًا لنزعتة هذه، ملتزمًا لها، وكان يُكرّر دائمًا: «لقد ولدت بنزعة انطباعية، وسأظل كذلك».

ولم يكن فن يوسف كامل مثل فن الانطباعيين فحسب، بل كان مثل الكثيرين منهم في أخلاقه وطباعه؛ فهو مثلهم يزهد في المدن، ويعشق الريف، ويهيم بالتجوال في الأحياء القديمة، وهو يُشابه العديد منهم في تجنّب الجدال النظري، وحبّه للحرية والاستقلال والصدق الذي يُشعّ من نفسه بالنور.

هذا النور الذي كان من سمات فنّه، ومن خصائص نفسه، يصدّق عليه شعار السهروردي: «ارفع ذكر النور، وأنصر أهل النور، وأرشد النور إلى النور».

في البدء، وجد يوسف كامل عالمه التصويري في أحياء القاهرة القديمة التي تعيش خلف أسوار باب الخلق، وكأنَّها تطوي روح المدينة القديمة، ثم وجد عالمًا آخر في الضواحي بالقاهرة عند المطرية والمرج وعين شمس.

كانت لوحاته الأولى لأحياء القاهرة وأسواقها تتَّفَق من حيث الموضوع، وتقترب في أسلوب التناول من أساليب الفنانين المستشرقين، وإن كان لها صدقها الخاص، غير أن عالمه وسَّع الريف والأسواق منذ ترك القاهرة وأقام بضاحية المطرية.

ومنذ ذلك الحين، أخذت حياته تمضي بين بيته في الضاحية ومَرسمه في عرب الحصن على مقربة من مسلة عين شمس ... وتذكُّرنا حديقة هذا المرسوم بحدائق فان جوخ في آرل، وحدائق العشب، والأشجار الطليقة التي صوَّرها بيسارو ومونيه. وتُكَمِّل جو هذا المرسوم سيدتان ريفيتان تسكنان بجواره وتحرسانه. أما الأم وقد عُرِفَت بـ «الست الكبيرة»، فقد قاربت التسعين، وأما ابنتها «الست الصغيرة»، فعلى مشارف السبعين. وكلَّما قَدِم الفنان إلى مرسمه لقي منهما الود والترحيب ... وعاش يوسف كامل في هذه البقعة صديقًا للطيور والحيوانات والسكان ... ولقد عرف الناس شغفه وحبَّه، فكانوا يستقدمون له الماعز والحُمير والطيور، وهو بينهم متفتِّح القلب والعين، حواسُّه تنبض بحبٍّ عميقٍ للنور والألوان. وقد ظل هذا المرسوم ملتقى ليوسف كامل وأصدقائه من أهل الفن والأدب، وكانت حديقته من منازل وحيه ومُحرِّك إلهام الشعراء. وقد ألهمت هذه الحديقة الشاعر أحمد رامي قصيدته «شمس الأصيل».

بين لوحاته

يمكن تقسيم لوحات يوسف كامل من حيث الموضوع إلى أقسام أربعة:

- لوحات تُصوِّر أحياء القاهرة القديمة.
- لوحات تُمثِّل حياة الأسواق والضواحي حول القاهرة.
- لوحات تُمثِّل الطيور والحيوانات، وهي من خصائص فنِّه المميزة.
- وأخيرًا صور الأشخاص.

وقوام هذه الأعمال تصوير جوِّ اللحظة التي يراها الفنان، وانعكاس النور والظل، ودفع الشمس على منظر مُعَيَّن وعلى الكائنات ... وهو يمضي يُسجِّل في مجالات اللحظات العابرة للناس ولحظات استغراقهم في العمل أو اللعب أو الاسترخاء، ثم ينقل انفعالاته

التي سجّلتها مجالاته على ألواح، فتخرج محملةً بجوّ المكان وجوّ اللحظة في حُلة من النور والألوان.

وهو في حرصه على تسجيل ما يراه وفي انفعاله به يفعل كما كان يفعل أوجين بودان مُصوّر الريف الانطباعي، وكما كان يروي بيسارو في المنظر تسجيلًا صادقًا لمشهد ينبض بالصدق ويُعبّر عن تواسّج الفنان مع المكان دون الانشغال بالتركيز والتركيب الذي كان من اهتمامات جيوتو وتنتوريو وديلا كروا.

على هذا النحو يمضي تعبير يوسف كامل ... رؤياه انفعال بصري، وأسلوبه التشكيلي انعكاس لهذا الانفعال.

غير أن التزام يوسف كامل لموضوعات معينة طوال حياته الفنية لا يعني التزامه باتجاهٍ لم يتطوّر منذ بدايته؛ فهو قد ظل يرسم مشحونًا بطاقةٍ من الحب للأشياء المحيطة به، وحساسيته الفنية كانت هُدًى إلى التكوين واللون والملمس وفق تأثره بموضوعه.

وفي نطاق هذه الحساسية، يتغيّر أسلوب تعبيره الفني؛ فأعماله في المرحلة الإيطالية التي تُعتبّر صورة الفلاحة من روما نموذجًا لها، تختلف عن أعماله في المرحلة القاهرية الأولى، والبيوت الإيطالية القديمة تختلف في درجات لونها عن لوحاته الوضّاء التي صوّرها في أحياء القاهرة، وإن كانت لوحات المرحلة الأولى قد تأثّرت بأساليب أساتذته، وتغلّبت عليها ألوان الفنانين المستشرقين، إلا أنه عاد إلى تلك الأماكن التي صوّرها في مطلع شبابه؛ فهو من أكثر الفنانين وفاءً لأحياء القاهرة القديمة وبيوتها العتيقة، لا يكفّ عن النظر إليها وإعلان حبه لها ... وهو في عودته إليها في مرحلة إنتاجه الأخير يُسقط كثيرًا من التفاصيل التي كان مولعًا بتسجيلها في شبابه، ويرتكز على معالم يُشكّل منها صورة المكان ولحّة من روحه، ويزداد في هذه المرحلة إشعاع لونه بريقًا، ويكتسب ملمس اللوحة غناءً وسُمكًا. على هذا النحو جاء تصويره لبيت البكرية، والباب الأخضر، وبوابة المتولي، وغيرها من الأماكن التي عاد إليها، وكأنّ الفنان أراد أن يؤكد في هذه الأعمال وجود تلك الأماكن، وتشبّه بها من خلال ألوانه القوية الصادقة أحيانًا، وبلمساته المكيّنة الصريحة التي خرجت من هدوئها القديم إلى تعبير انفعالي عن الجو والمكان واللحظة.

وإذا كان هذا التطور باديًا في تصوير الأحياء القديمة فإننا نراه أيضًا في تصوير المناظر ... ومناظر يوسف كامل هي تعبير عن الريف البسيط حول ضواحي القاهرة في صورته الخارجية وانعكاس النور والظلال عليه ... هو ليس ريفًا أسطوريًا، ولا قرية رمزية، مثل ريف محمود سعيد وقُراه، وهو لا يحفل بالنزعة البنائية التركيبية التي

استخدمها ناجي في تصوير بعض قراه، وإنما هو الريف في جمال ألوانه ولألاء شمسِه ... وهو حين يصور الضواحي والأسواق يتجه أحياناً إلى التعبير بألوان فاقعة، وملمس رهيف، وأحياناً أخرى يُعبّر بألوان ذات بريق وكثافة من خلال ضربات فرشاة مشحونة بطاقة من الانفعال كما يبدو في أعماله الأخيرة التي تلوح كأنها تجديد لشباب الفنان واندفاع لطاقته. وتلك ظاهرة واضحة في معظم ما أنجزه من أعمالٍ بعد فترة صمّت بين عام ١٩٥٨م، و١٩٦٢م بسبب مرضٍ أصاب عينيه وأثر في صحته.

وكذلك يُمضي التطور في تصويره للحيوانات والطيور ... كان في مراحلهِ الأولى شغوفاً بالتفاصيل، معنياً بتسجيل ملامح الحيوان، وبخاصة المعز التي آثرها بحبه. ونُذكرنا لوحات تلك الحقبة بأعمال مُصوِّري الحيوانات الإيطاليين من القرن التاسع عشر، أمثال بيانكي وأمالفي وآزينللو ونابولي مُصوِّر المعز، وإن كانت المصرية تُطلُّ من لوحات يوسف كامل، وتؤكد طابعها الخاص.

ويظل يوسف كامل شغوفاً بتصوير حيوانات البيئة التي يحفظ لها حباً شديداً، وإن كان تناوُلُه قد اختلف، ورؤياه للمامح أصبحت رؤية جديدة يستخدم فيها المقابلات اللونية وسيلةً لثراء التعبير، ويتحوّل من التركيز على التفاصيل إلى أسلوب اللوحة التي تلتقط السمات الظاهرة، وتُسجّل الحركة والوقفة المميزة للطيور والحيوانات بضربات فرشاة سريعة، تحاول اللحاق بما يراه، والتعبير عنه قبل أن يغيب.

ونُصاحب صوُرُ الأشخاص مراحلَ إنتاج يوسف كامل ... ففي أعماله عالم زاخر من وجوه أصدقائه والمحيطين به، ولديه قدرة على تسجيل ملامح الوجوه بلمساتٍ تصل في كثيرٍ من الأحيان إلى النفاذ إلى شخصية جليسه، ولكنه لا يعنيه في هذه اللوحات عنصر التركيب والتكوين الهندسي قدر ما يعنيه تسجيل الملامح والأشباه.

ويختار يوسف كامل شخصياته من بين أفراد أسرته وأصدقائه وتلاميذه، ومن أبناء ضاحيته والقرى المحيطة بها.

ولم يكن يوسف كامل يقوم بهذه الأعمال «تكليفاً»، على غرار معظم مُصوِّري الأشخاص، ولكنه كان يؤديها محبةً، وكأنها بطاقة ودٌّ يُقدِّمها لتلميذ أو صديق، أو تذكّار وجهٍ استحوذت ملامحه على نفسه. وأغلب هؤلاء من البسطاء الذين كانوا يؤثرون بمحبّة خاصّة.

وإذا كان بين هذه اللوحات وجوهٌ لشخصيات عامة، فإن تصويره لها كان لصداقة تربطه بها، أو لإعجابٍ بشخصية تاريخية، مثل أحمد عرابي.

وظل يوسف كامل حتى أخريات حياته يواصل إبداعاته، وفيًا لمجالات حبه، صادق الحماسة لفنّه، وهو يُمثّل عندنا رائدًا من رُوّاد الجيل الأول من فناني مصر المعاصرة؛ هؤلاء الذين ارتادوا عالم التشكيل الحديث، وقَدّموا ملامح في أعمالهم، كما أنه يُمثّل مُعلّمًا أمينًا للأجيال التي تتلمذت عليه، سواء منهم من التزم اتجاهه، أو اتخذ طريقًا للمضي نحو آفاق أخرى.

يوسف كامل

- وُلد بالقاهرة في ٢٦ مايو ١٨٩١ م.
- التحق بمدرسة الفنون الجميلة عند إنشائها سنة ١٩٠٨ م، وتخرّج فيها سنة ١٩١١ م.
- عمل بوظائف التدريس بالتعليم العام، وسافر لدراسة الفن على نفقته في روما إلى أن أُوفد إليها في بعثة حكومية من سنة ١٩٢٥ م إلى سنة ١٩٢٩ م.
- عاد من روما وتولّى التدريس بمدرسة الفنون الجميلة العليا منذ عام ١٩٢٩ م حتى صار رئيسًا لقسم التصوير، ثم أُسندت إليه عمادة كلية الفنون الجميلة من عام ١٩٥٠ م حتى عام ١٩٥٣ م، وكان له خلال هذه الحقبة الطويلة فضل تعليم أجيال من الفنانين.
- عُيّن خلال تلك الفترة مديرًا لمتحف الفن الحديث من عام ١٩٤٧ م حتى يناير ١٩٥٠ م.
- كان ثانيَ فنان تشكيلي يحصل على جائزة الدولة التقديرية للفنون بعد محمود سعيد.
- عُيّن بعد تقاعده عضوًا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرّرًا للجنة الفنون التشكيلية بالمجلس.
- له عديد من الأعمال الفنية بالمتاحف والسفارات المصرية بالخارج، وفي المجموعات الخاصة.
- تُوِّفّي في ١٢ ديسمبر ١٩٧١ م.

من أعمال يوسف كامل



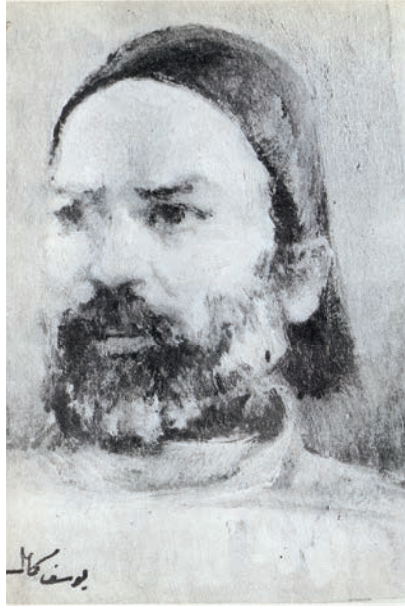
محمود مختار، من أعمال المرحلة الأولى.



رقيقة.



الفنان عبد الرحمن مراد.



أحمد عرابي.



المثال أحمد عثمان.



الفنان مفيد جيد.



حرم الفنان مفيد جيد.



المثال أحمد عثمان.



الفنان كلوتشي، من أعمال المرحلة الأولى.



صورة شخصية من أعمال الفنان في روما.



ابنة الفنان، من أعمال المرحلة الوسطى.



فلاح، من أعمال المرحلة الوسطى.



بائعة الورد، من أعمال مرحلة روما.



عبار طريق، من أعمال مرحلة روما.



سميحة ابنة الفنان، من أعمال المرحلة الوسطى.



عجوز من روما.

























الغريال.





عند الباب الأخضر.







مقهى الضاحية.



بيت قديم، من أعمال مرحلة الدراسة.

من أعمال يوسف كامل



الباب الأخضر، من أعمال المرحلة الأخيرة.





الدجاج، من أعمال المرحلة الأخيرة.



من حي الحسين.



الحمام، من أعمال المرحلة الأخيرة.



الماعز، من أعمال المرحلة الأولى، بعد الرحلة الإيطالية.





